والأدب الذي يرصد هذه الظاهرة يجسّدها في قصائد الشعراء وقصص ومسرحيات الكتاب . ولن يكن هناك أدب « إسلامي » إلاّ والأخلاق مثاله ونموذجه. وليس المراد بـ (الأخلاق) هنا صورتها الوعظية الباهتة ، بل المراد بها روحها التي تحرك الأفراد والجماعات ، وقيمها التي تبني الحضارات الفاعلة في حركة التاريخ،إذ التاريخ نفسه عبارة عن حركة دائبة للإنسان الذي تدفعه القيم الأخلاقية للتحرك والبناء.

ولقد احتضر الأدب الذي جافت روحه هذه الأخلاق ، وهو إن وجد في مرحلة من حياة أوربا ، فإنه عبّر عن فترة مظلمة في تاريخ الإنسانية ، وهي الفترة التي بدا فيها الإنسان الأوربي سبعاً ضارياً يفتك بالأضعف منه في غابة الحياة كما صورتها القيم الأوربية الحديثة . ولقد أكلت أوربا الثمرة المرة لهذا التوجه في حربين عالميتين مدمرتين ، ولايبدر أنها تسير في إتجاه العظة والعبرة مما حدث .

وقد صدق توفيق الحكيم حين قال : (لابد للفن أن يكون مثل الدين قائماً على قواعد الأخلاق) (٥).وماأخلاق الأدب عندنا إلا أخلاق الدين ذاته .

إن الحركة التاريخية المستمرة لاتدفع الفكر الإسلامي إلى القول بالتطور المطلق في كل شيء ، بل هناك إطار ثابت ومحور ثابت لايناله هذا التطور . وهذا يشمل الحقيقة الألهية ، قدرة الله وسرمديته وصفاته ، وعبودية الخلق له ، واستمدادهم من منهجه ، والإخلاص له ، وحقيقة الغاية من وجود هذا الإنسان ، وحقيقة أن الدين عند الله هو الإسلام ، وحقائق الدني باعتبارها دار ابتلاء وعمل ، وأن الأخرة دار حساب وجزاء .

كل هذه حقائق ثابتة ، ومقوّمات أساسية ، لاتتغير ولاتتطوّر (٦)،والذي يتطور هو ظواهر الحياة العملية ،ولكنه تطوّر محكوم بالقيم الثابتة والمحور الثابت .

هذه هي طبيعة التطور الإسلامي التي تختلف عن الحمى التي استولت على الفكر الأوربي في القرون الأخيرة ، حيث شملت فكرة التطور الحياة البيولوجية والنفسية والإقتصادية ، وطالت الأرض والسماء ، وكل مافي الوجود ، وتجرأت على الحقيقة الإلهية ذاتها .